

جدلية الإبداع

بين التقييد والانطلاق

الإبداع الأدبي عملية معقدة ذات مراحل متشابكة يمر بها المبدع ويعيش تحت وطأتها حتى يخرج نتاجه إلى حيز الوجود جسداً متكاملأً ، واضح المعالم ، بين السمات ويصبح بين يدي المتلقي .

في هذه المراحل تتشابك وتتداخل أمور كثيرة أبرزها الجانب اللغوي متمثلاً في ثروة المبدع اللفظية والأسلوبية وما يضبط نظمها من قواعد النحو والعروض والجانب النفسي ممثلاً في مدى انفعال صاحب العمل الأدبي ومدى تأثيره بموضوع عمله واستعداده للكتابة فيه وهو ما يطلق عليه التجربة الشعرية يضاف إلى ذلك المهبة والاستعداد وما لدى المبدع من مخزون ثقافي وخبرات حياتية .

ولا يستطيع الناقد أو الباحث فصل مرحلة عن الأخرى ، فكلمها تتشابك إلى حد كبير يصعب معه الإمساك بجانب دون الآخر ، حتى أن المبدع نفسه لا يدري من أمر هذه المراحل شيئاً ، كل ما يدريه أنه يقع تحت تأثيرها فتتفاعل ثروته اللغوية مع حالته النفسية ودرجة انفعاله قوة أو ضعفاً ، وقد اعترف بذلك نزار قباني إذ يقول " أنا لا أكتب القصيدة ، إنما هي التي تكتبني " مشيراً إلى حالة المبدع حال إنتاج عمله .

والحقيقة التي ينبغي ألا نغفلها هي ما يتاح للمبدع من حرية أو ما يقع تحته من قيود في التعامل مع تجربته ، وأعني بالقيود هنا المؤثرات وإطار التجربة

وهي أغلال يضع المبدع نفسه فيها برغبته وبرضا منه . أما ماعدا ذلك فهو حر طليق . يفرد كيفما شاء كالطائر ينتقل من فنن إلى فنن .

وفي ثنايا مصادر الأدب ويطون المراجع ما يؤكد حرص الشاعر في كل زمان على حريته . وإعطاء نفسه مساحة من الانطلاق تتيح له تكوين نتاجه وتحديد معالنه . ومنهم من غالى في هذه الحرية فخرج على نظام القبيلة والمجتمع من حوله وأبى إلا العيش في الخلاء . حيث الفضاء الرحب والمدى الواسع من حوله كالشعراء الصعاليك :

الشنفرى . والسليك بن السلكة . وعروة بن الورد . وتأبط شرا وغيرهم . وهذا الشنفرى في لاميته يقول مشيدا بحريته التي ينتشدها . وأصحابه الذين اتخذهم عوضا عن أهله . فهو يئنه بني أمه أنه غير راغب فيهم . وأنه سيميل لغيرهم . فهو كريم يأبى المذلة وأن يعيش مهانا في قومه . وفي الأرض متسع ومأوى لكل كريم يخاف من الهجر واعتزال الناس . يقول :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطَرِكُمْ
فَإِنِّي إِلَيَّ قَوْمٌ سِيَّوَاكُمْ لَأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْخَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ
وَشُدَّتْ لَطِيَّاتُ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَقِي الْأَرْضِ مَنَائِي لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى
وَقِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلْبَى مَتَعَزِّلُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضَبِيقٌ عَلَى أَمْرِي
سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَعْزِلُ

وتعبيراً عن الحرية فقد اتخذ لنفسه أهلاً غير أهله ، يرى فيهم الخير ، يحفظون
سره ، ولا يخذلونه إذا ارتكب جناية أو اقتترف ذنباً :

وَلَسِي ثَوْنَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَّاسٌ
وَأَرْقَطُ ذُهُولٌ وَعَرَفَاءُ جَيْلٌ
هُمُ الرُّهْطُ لَا مُسْتَوْدِعَ السِّرِّ ذَائِعٌ
لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْسَلُ
وَكُلُّ "أَيْسِي" بِأَسْبَلٍ غَيْرِ أَنْبِي
إِذَا عَرَضَتْ أَوْلَى الطَّرَائِدِ أَسْبَلُ
وَلَنْ مُنِخْتِ الأَيْدِي إِلَيَّ الزَّادُ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجَشَّعُ النَّوْمُ أَعْجَلُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَقْضِي
عَلَيْهِمْ وَكَأَنَّ الأَفْضَلَ الْمُتَقَضِّلُ (١)

ويبين أن السبب في ابتماده عنهم أنه لم يجز بالحسن منهم ، ولم يجد
في قريهم ومصاحبتهم ما يدعو إلى المصاحبة :

وَأِنِّي كَفَانِي فَمَنْ لَيْسَ جَارِيَا بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِي مُتَعَلِّلُ
فأصحابه الذين ارتضى صحبتهم ثلاثة : قلبه النابض المحب ، وسيفه
القاطع المصلت ، ومهرته الطويلة العنق السريعة :

ثَلَاثَةٌ أَصْحَابُ: فَوَأَذْ مُشْتَبِعٌ
وَأَبِيضٌ إِصْبَلِيَّتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
هَتُوفٌ مِنْ المُلْتَسِ المُنْتَسُونَ يَزِينُهَا
رَصَائِعُ أَلَدِ نَيْطَلَتِ إِلَيْهَا وَمِحْمَلُ

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السُّوْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهُمَا
مُرَزَاةٌ عَجَأَى تُسْرِنُ وَتُعْمَوِلُ

وما فعله الشنفرى وغيره من شعراء الصعاليك كان الدافع إليه حب الحرية والانطلاق ، فهم لا يرتضون القيود ، ولا يحبون أن يفرض عليهم شيء .

وهذا المتنبي أمير الشعر العباسي ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، ظل يفرد في بلاد الشام في بلاط سيف الدولة الحمداني ، يصدح بأعذب الألحان ، ويشنف الأذان ، فلما أهين في مجلس الشعر ، ولم ينصفه ممدوحه عاتبه منبها إياه من الغفلة ، وألا ينخدع بكلام المداهين المخادعين المحيطين به ، وأن يعرف الناس على حقيقتهم فقال :

بَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ
أَعْدَمًا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ لِيَمَنِ شَحْمُهُ وَرَمُّ
وَمَا النَّفْعُ أَخِي التَّنْبِيَّ بِنَاطِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

ويصرح بعد ذلك معلنا الرحيل عن قوم لم يقدره حق قدره ، ومبيناً أن شر المكان الذي لا يجد فيه المرء الصديق والرفيق ، ولا يجد فيه الراحة والتقدير وعندئذ يكون الرحيل أمراً واجباً محبباً ، فيقول :

يَأْمَنُ يِعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجِدَانُنَا كُلُّ شَيْءٍ بَمَتَكُمُ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمُّ
إِنْ كَانَ سَرَكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ
أَرَى اللَّوَى بِتَقْضِيئِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الْوَحَاةُ الرَّسْمُ
لَنْ تَرُكَنَّ ضُمِيرًا عَنْ مِيَامِنَا لَيْحَنَنْ لِمَنْ وَدَعَتْهُمْ نَعْمُ

إذا تَرَحَّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَرَى تَفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ
شَرُّ الْبِلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِمُ
وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَأَحَتِي قَنَصٌ شَهْبُ الْبُرْزَةِ سِوَاءَ فِيهِ وَالرُّخْمُ (٢)

ثم قال لمن حوله " لم يعد للمتنبى مقام في حلب " وقرر الرحيل إلى مصر، عله يجد فيها الراحة والمكانة اللائقة. وكان له فيها ما كان مع كافور الإخشيدى فكتب فيه قصيدة الهجاء المشهورة، وارتحل بعدها إلى بلاد الشام مرة أخرى، وظل فيها متنقلاً حتى لقي حتفه.

وهذا نزار قباني شاعر العصر الحديث الذي ملأ الدنيا بشعره، لم يقبع في مكان، بل ظل متنقلاً، يرتحل من بلد إلى بلد آخر، يقيم حيث توجد الحرية ويرحل عندما يختنق ويشعر بالأغلال تقيد فمه وتمسك عليه لسانه، وتوقه عن قول الحقيقة، ويعطل رحيله وانتقاله بأنه لا يرتضي المذلة والمهانة، ويقول:

لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة
لأنني أحارب الطاعون في أممي المحاصرة
يحاربني كل الطغاة والجبابرة (٣)

ولذا نراه يقول عن الحرية: " أتصور، أنه لا بد من أن نتفق على تعريف مبدئي لعنى الحرية حتى لا تتداخل حدود الأشياء وتضطرب الرؤية، ويختلط اللون الأبيض باللون الأسود وأول ما أتصوره هو أن الحرية حركة فردية داخل دائرة الجماعة هذه الجماعة يمكن أن تكون أسرة أو قبيلة، أو جمعية، أو مدرسة أو وطناً. ومعنى هذا أن الحرية هي خط هندسي ضمن دائرة، وليست أبداً حركة في الفراغ أو المطلق..

وكما أن البحر محدود بالشواطئ والرياح محدودة بالجبال، والأنهار محدودة بضفافها، والطائرات محدودة بمدارج الصعود والهبوط، والعصافير محدودة بمساحة أجنحتها فإن الإنسان هو الآخر محدود بمسؤوليته واستعمال الحرية كاستعمال المستحضرات والعقاقير الطبية، لا يمكن أن يكون بغير مقاييس ومعايير وضوابط وإلا كانت الحرية قاتلة" (٤)

ويقول عن الكتابة: الكتابة هي فن التورط ولا كتابة حقيقية خارج "التورط". الكتابة ليست سجادة فارسية يمشي عليها الكاتب كما يقول جان كوكتو ولا مقعداً مغلماً "لأوبوسون"، ولا مخدة من ريش العصافير تغوص رؤوسنا فيها، ولا يختأ خاصاً نتشمس على ظهره....

إن الكاتب يجب أن يظل في أعماقه بدوياً يتعامل مع الشمس والملح والعطش.. يجب أن يبقى حافي القدمين حتى يتحسس حرارة الأرض وتتواءمها ووجع حجارتهما.. يجب أن يبقى عارياً كحصان متوحش، ورافضاً كل السروج التي تحاول الأنظمة وضعها على ظهره. ومتى فقد الكاتب بداوته، وتوحشه وقدرته علي الصهيل، ومتى فتح فمه للجام الحديدي، ومنح ظهره للبراكين، تحول إلى "أوتوبوس حكومي" مضطر إلي الوقوف على جميع المحطات والخضوع لصفارة قاطع التذاكر. (٥)

والنماذج كثيرة في مراجع الأدب تؤكد لنا أن الحرية والانطلاق من لوازم

الشاعر، وهي الأرض التي يبني عليها وفي ظلها أبعاد تجربته، ويرسم حدودها.

الهوامش

- ١- الشعر الجاهلي ، شوقي ضيف .
- ٢- شرح ديوان المتنبي للبرقوقي .
- ٣- الأعمال السياسية لنزار قباني .
- ٤- الأعمال الكاملة ، الكتابة عمل إنقلابي ، ص٣١ .
- ٥- نفسه ، أتوبوسات الشعر ، ص ١٥ .